سورة الانشقاق

مكية، وهي ست وعشرون آية مع البسملة

سورة الانشقاق مكية، ويبدو من مضمونها وأسلوب عبارتها وما رُوي عنها أنها مما نزل في بداية البعثة النبوية. إن موضوعها مرتبط بسور التكوير والانفطار والمطففين، وصلتها بهذه السور ظاهرٌ بيّن. تكمن علاقتها بالسورة السابقة في أن الله تعالى قد ختمها بقوله ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.. أي أن الكفار يظنون أنهم لن يعاقَبوا على سلوكهم الطائش، ولكن حين تُكسر شوكتهم وينتصر المسلمون سيقال لهم: أيها الكافرون، انظروا إلى هلاككم! أجُزيتم على تصرفاتكم الخاطئة أم لا؟ عندها يُقضى على قوتهم. وهلاك الكفر متلازم لرقي الإيمان، لأن الفراغ الكامل محال في العالَمَين الروحاني والمادي؛ بل كلما انعدم شيء حلّ مكانَه شيء آخر. فإذا ذهب الكفر حلّ الإيمان مكانه، وإذا ذهب الإيمان أخذ الكفر مكانه. ولما كانت السورة السابقة تتحدث عن دمار الكفر، فهذه السورة تتحدث عن ازدهار الإيمان. وكأن صلة هذه السورة بالسور الثلاث السابقة – المتحدة معها في المعنى – هي أنّ الموضوع الأساس فيها هو رقي الكفر ثم عاقبته، أما هذه السورة فتتحدث أساسًا عن انتصار الإيمان وغلبته؛ وهكذا فإن هذه السورة أيضًا تتحدث عن الزمن الأخير مثل السور الثلاث الأولى. لقد سبق أن قلتُ إن سورة المطففين هي في الواقع تسلسلٌ لسورة الانفطار، حيث بدأت سورة الانفطار بذكر انفطار السماء، كما بدأت هذه السورة أيضا بذكر انشقاق السماء بقوله تعالى ﴿إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ﴾ وكان انفطار السماء في سورة الانفطار نتيجةَ غضب الله تعالى. وأما انشقاق السماء في هذه السورة فإشارة إلى نزول رحمة الله تعالى. إذن، فهذه السورة مع أخواتها الثلاث السابقة تتحدث عن الغلبة الثانية للإسلام وما قبلها من مفاسد وشدائد وآلام. فلكل سورة من هذه السور طابع جديد. فهذه السورة

تتحدث عن الزمن الأخير حيث تخبر أن الله تعالى سيكشف علوم السماء في ذلك الزمن، وأن الأرض ستتقبلها.. وكأن المراد من انفطار السماء في سورة الانفطار هو غلبة المسيحية. أما المراد من انشقاق السماء في سورة الانشقاق فهو انكشاف علوم السماء أو نـــزول مطر السماء، ولذلك قال الله تعالى بعدها ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ ليبين أن انشقاق السماء هذه المرة ليس نتيجة معصية الله تعالى، بل هو بسبب طاعته.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

انشقت: انشقَّ انفعال من شَقَّ. شَقَّ الشيءَ شقًّا: صَدَعَه وفَرَّقَه، ومنه قولهم: شَقَّ عصا المسلمين.. أي فَرَّقَ جَمْعَهم وكلمتَهم. وشقَّ نابُ البعير شقوقًا: طلع، وكذا شَقَّ نابُ الصبيّ والصبحُ شَقًّا: طلَع. وشَقَّ النبتُ شُقوقًا: وذلك في أول ما تنفطر عنه الأرض. وشقَّ العصا: فارقَ الجماعةَ. وشقَّق الحطبَ: شقَّه. وانشقَّ الشيءُ انفتح فيه فرجةٌ وانصدعَ. وانشقَّ الأمرُ: انفرقَ وتبدّدَ اختلافا. وانشقَّ الفجر: طلَع. انشقَّ البرقُ: انعقَّ (الأقرب). فالانشقاق يعني انصداع الشيء وظهور شيء آخر من ورائه.

التفسير: بيّنا في شرح الكلمات أن للانشقاق نتيجتين: أن ينشق الشيء ويَتلَف، أو ينشق الشيء ويظهر من ورائه شيء آخر، لأن الشيء يكون حائلا دون شيء، وإذا انشقّ ظهر ما وراءه. وعليه فيمكن أن يراد بانشقاق السماء نزول العذاب أو الرحمة منها، لأن عند الله العذاب وعنده الرحمة.

إن قوله تعالى ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ في سورة الانفطار يعني انشقاق السماء ونزول العذاب منها، أما قوله تعالى في هذه السورة ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ فيعني انشقاق السماء ونزول كلام الله منها، ويماثل هذا قولَ الله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ

كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾(الأنبياء:٣١).. أي لِمَ لا يتدبر الكفار في أن السماء والأرض كانتا ككرة منغلقة، فشققناهما. وانشقاق السماء هنا لا يعني نزول العذاب منها، بل نزول الرحمة منها، لقوله تعالى بعد ذلك ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾(الأنبياء:٣١).. أي أن السماء والأرض كانتا مغلقتين ليس بهما شقٌّ، فلم تكن الأرض تخرج نباتها، ولا السماء تنـــزل ماءها، فلما شققناهما أخذت السماء تنـــزل ماءها، وأخذت الأرض تخرج نباتها. وهذا هو المعنى الذي بينه الله تعالى بأسلوب آخر بقوله في هذه السورة: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾.. أي بسبب نزول العذاب ونتيجة انتشار الكفر والشرك والبدع المذكورة في السورة الماضية، كانت السماء قد أمسكت بركاتها وانكمشت ولم يكن فيها شقٌّ ينـــزل منه الرحمة على أهل الأرض، بل كان فيها شق ينـــزل منه العذاب فقط، فرحم الله عباده، فشق السماء شقًّا تنـــزل منه رحمته. ثم أتى بالدليل على ذلك وقال ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾.. أي كما كان الانشقاق السماوي من قبل نتيجة العصيان والإثم، فالانشقاق الآن نتيجة الانصياع والطاعة، لتنـــزل منه رحمة الله وكلامه.

وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

أَذِنتْ: أَذِنَ بالشيء إِذْنًا وأَذَنًا وأَذانًا وأَذانةً: علِم به. أذِن له في الشيء: إذنًا وأَذينًا: أباحه له. وأذِن إليه أَذَنًا: استمع. (الأقرب).

وورد في المفردات: وأَذِنَ: استمعَ، نحو قوله: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾.

وفي البخاري حديث عن رسول الله ﷺ: "ما أَذِنَ اللَّهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ" (البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب من لم يتغنَّ بالقرآن).. أي لا يستمع الله لشيء كما يستمع إلى صوت نبيه ﷺ حين يقرأ القرآن بالتغني.

حُقَّت: حَقَّ عليك ويحِقّ عليك وحُقَّ لك أن تفعل أي وجَب عليك... وقول

القرآن: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾.. أي حُق لها أن تفعل (الأقرب). فقوله تعالى ﴿وَحُقَّتْ﴾ يعني: حُقَّ للسماء أن تفعل كذا.. أي جدير بالسماء أن تصغي لحكم ربها وتطيعه.

التفسير: لقد بيّن الله تعالى هنا أنه في الزمن الأخير سينـــزل على الأرض غضب الله وشتّى الآفات الأخرى من جهة، ومن جهة أخرى سيُنـــزل الله كلامه. والحق أن انشقاق القمر يدل على نزول المطر، فالمراد أن السماء تنشقّ لكي ينـــزل الغضب على قوم، كما أنها تنشقّ لتُمطِر رحمةَ الله على قوم آخرين، وينكشف كلام الله وعلوم السماء.. بمعنى آخر أن القرآن سيكون عندها كالميت، ولكن الله تعالى سيُنـــزِل معارف القرآن ويهطل مطر كلامه وإلهامه من السماء.

ويمكن تفسير هذه الآية بمفهوم آخر، على ضوء قوله تعالى في موضع آخر ﴿وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا...﴾(الحاقة:١٧-١٨).. أي ستنشقّ السماء فتصبح متخرّقة ضعيفة، وتقف الملائكة على أطرافها طاعةً وانقيادًا.. أي كما أن الله تعالى قال للملائكة ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ عند خلق آدم الأول، كذلك ستنشق السماء في الزمن الأخير ويولد آدم روحاني جديد وتحدُث ثورة روحانية في العالم وتنفتح أبواب السماء، وستكون الملائكة مستعدة لطاعة أوامر الله تعالى وتنفيذها.. أي ستنـــزل الملائكة من السماء لنصرة آدم وتأييده.

والملاحظ هنا أن الله تعالى قال أوّلاً ﴿وأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾، ثم قال ﴿وَحُقَّتْ﴾.. بمعنى أن السماء ستستمع إلى أمر ربها وهذا هو اللائق بها، فكلمة ﴿حُقَّتْ﴾ إشارة إلى شدة الإذعان والانقياد. كان يكفي أن يقول الله تعالى إن السماء ستنقاد لأمر الله تعالى، ولكنه زاد كلمة ﴿حُقَّتْ﴾ لبيان أنها قد خُلقتْ لهذا الانقياد. والشيء المهيَّأ لعملٍ يكون أقدر على إنجازه من الأشياء الأخرى. فمثلا: يمكن أن تنجز بالخنجر ما لا تنجزه بالموسى، لأن كفاءة الخنجر أعلى من كفاءة الموسى، وبالمثل ما تفعله بالسيف لا تستطيع أن تفعله بالقضيب، وإن كان القضيب ينفعك بعض الشيء. فما صُنع لغرض معين هو الأدعى لتحقيقه من غيره من الأشياء الأخرى.

فالمراد من قوله تعالى ﴿وحُقَّتْ﴾ أن السماء ستطيع أمر الله وتنفّذه إلى أقصى حد، إذ خلقها الله تعالى للطاعة والانقياد والإذعان لأوامره كما ينبغي.

وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٤﴾

شرح الكلمات:

مُدَّت: مَدَّ الله الأرضَ أي بسَطها. ومدَّ الله عُمُرَه: أطاله. ومَدَّ المديونَ: أمهلَه. ومدَّ القومَ: صار لهم مَدَدًا وأغاثهم بنفسه. وفي "اللسان": مددتُ الأرض مَدًّا: إذا زدت فيها ترابًا أو سمادًا من غيرها ليكون أعمرَ لها وأكثرَ ريعًا لزرعها. ومدَّ السراجَ بالسَّليط: صَبَّ فيه زيتًا. (الأقرب)

فقوله تعالى ﴿وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ﴾ يعني: ١- أنها ستُبسَط، ٢- ستُمهَل ليعوَّض عن نقصانها، و٣- سوف تغاث.

التفسير: يقال مَدَّ اللهُ الأرضَ: بسَطها، وعليه فقوله تعالى ﴿وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ﴾ يعني: عندما تُمَدُّ الأرضُ مدًّا. قال الله تعالى في آية أخرى ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾(الحجر:٢٠)، ولما كانت الأرض ممدودة سلفًا فليس المراد من مدِّها في الزمن الأخير إلا معنى روحانيًا، وهو أنها تكون فاسدة مدمرة نتيجة كفر الناس ومعاصيهم، فيخلق الله للناس أرضًا روحانية جديدة.. بتعبير آخر: تكون الأرض قد فقدتْ كفاءاتها نتيجة كثرة الكفر والمعاصي، فيشقّ الله السماء ثم يجعل الأرضَ صالحة لجذب أنواره.

ويقال: مدَّ الله عمره: أطاله، ويقال: مدَّ المديون: أمهله، وعليه فقوله تعالى ﴿وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ﴾ يعني أن السماء حين تنشقّ نتيجة كثرة الكفر والشرك في الزمن الأخير، ستستحق الأرض أيضًا أن تدمر وتباد نتيجة كثرة ارتكاب الذنوب عليها، ولكن الله تعالى سيشقّ السماء شقًّا فتنـــزل منها أنواره وبركاته على الأرض، فتستحق الأرض أن يُمدَّ في عمرها. لو قامت القيامة بمجيء نبي صارت بعثتُه عبثًا، لذلك لا بد أن يُعطى أهل الأرض مهلةً، وتتاح لهم الفرصة ليُصغُوا إلى

كلام الله ويتدبروا فيه. فالمراد من قوله تعالى ﴿وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ﴾ أنه سيُمَدُّ في عمر الدنيا وتُمهَل لكي تنتفع من بركاتنا.

ويقال مَدَّ القومَ: صار لهم مددًا وأغاثَهم بنفسه، وعليه فالمراد من قوله تعالى ﴿وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ﴾.. أي حين تغاث الأرض.. أي أنها تستغيث الله تعالى نتيجة ذنوب الناس وشركهم وتقول ربّ، قد نجسني الناس وأفسدوني، ودمروني بكثرة معاصيهم. فتنشق السماء وتنـــزل الملائكة منها لإغاثة الأرض، وهكذا تغاث الأرض.

يقال مَدَّ الأرضَ مَدًّا: إذا زدت فيها سمادًا، وعليه فالمراد من قوله تعالى ﴿وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ﴾ أن الله تعالى سيهيئ الأسباب ثانيةً للنهوض بالناس روحانيًّا مرة أخرى.

وكذلك يقال: مدَّ السراج بالسليط: صَبَّ فيه زيتًا، وصَبُّ الزيت يُعتبر بمعنى منح الحياة والكفاءات ثانية، وعليه فقوله تعالى ﴿وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ﴾ يعني أن الأرض ستُزوَّد بكفاءات جديدة.

باختصار، هذه الآية تفيد أن الله تعالى سيمدّ في عمر الأرض ويؤخر هلاكها ويزيدها سمادًا لتزدهر مرة أخرى.

وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝

شرح الكلمات:

تخلَّتْ: تخلَّى منه وعنه: ترَكه. وتخلّى له: تفرَّغَ له. (الأقرب)

التفسير: من مفاهيم هذه الآية أن الله تعالى سيهب لمبعوثه في الزمن الأخير – الذي ستنشقّ من أجله السماء لتنـــزل الملائكة منها– جماعةً مخلصة تقوم بتضحيات كبيرة تكون مصداقا لقوله ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾.. أي أنهم يضحّون في سبيل الله بكل غال ونفيس من مال ونفس وعز ووطن وراحة ومشاعر، ولن يترددوا في ذلك مهما كبرت التضحية. وبالفعل فإن الجماعة التي وهبها الله تعالى المسيحَ الموعود عليه السلام تتحلى بهذه الميزة. يقول عليه السلام:

"إن جماعتنا التي خلَقها الله في هذا العصر تشبه جماعة الصحابة ﷺ من عدة وجوه.. إنهم يشاهدون المعجزات والآيات كما شاهدها الصحابة ﷺ، ويتزودون مثلهم بالنور واليقين برؤية الآيات والتأييدات الإلهية المتجددة. إنهم يتعرضون في سبيل الله لأنواع الإساءات من استهزاء وسخرية وسباب ولعن وطعن وقطع رحم وغيرها، كما تعرض لها الصحابة ﷺ. إنهم ينالون حياة طاهرة ببركة آيات الله البينات وتأييداته السماوية ومعرفة حكمة أوامره كما نالها الصحابةُ. فكثير منهم يبكون في صلواتهم ويبللون بالدموع مساجدهم كما كان الصحابة ﷺ يبكون. وكثير منهم يروْن رؤى صادقة ويتشرفون بإلهام الله تعالى كما كان الصحابة ﷺ يتشرفون. وكثير منهم ينفقون أموالهم – التي كسبوها بعرق جبينهم – في سبيل جماعتنا ابتغاء مرضاة الله فقط، كما كان الصحابة ﷺ ينفقون. ستجدون كثيرا منهم يذكرون الموت، حلماء القلوب ومتحلين بالتقوى الصادقة كما كانت سيرة الصحابة ﷺ. إنهم حزب الله الذي يرعاهم، ويطهّر قلوبهم يوما فيوما، ويملأ صدورهم بالحِكم الإيمانية، ويجذبهم إليه بالآيات السماوية، كما جذب الصحابة. باختصار، توجد في هذه الجماعة كل تلك العلامات التي تُفهَم من قوله تعالى﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ﴾، وكان حقًّا أن يتحقق ما قال الله تعالى يومًا ما. (أيام الصلح، الخزائن الروحانية المجلد ١٤ ص ٣٠٦-٣٠٧)

وكذلك يقول عليه السلام:

أرى أن التقدم الذي أحرزتْه جماعتي في الصلاح والورع هو في حدّ ذاته معجزة، فآلاف منهم يفْدونني بأرواحهم. ولو أمرتُهم اليوم أن يتخلّوا عن كل أموالهم لتخلّوا عنها، ومع ذلك فلا أزال أحثّهم على المزيد من التقدم، ولا أحدّثهم بحسناتهم، ولكني مسرور في قلبي برؤية حالهم. (مجلة "الذكر الحكيم" عدد ٤ يوم ٢٤ مايو/أيار ١٨٩٦).

باختصار، إن قوله تعالى ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ يعني أن الله تعالى سيعطي عبده المبعوث في الزمن الأخير جماعةً تقدم إليه كل ما تملك لينفقه في سبيل الله ورسوله.

ومن معاني قوله تعالى ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾.. أن هؤلاء القوم سيستخدمون كفاءاتهم على أحسن وجه.

ويقال: تخلى له أي تفرغَ له واستعد له، وعليه فمن معاني قوله تعالى ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ أن النفوس الطيبة ستكون يومئذ مستعدة لسماع كلام الله، فينـــزل عليهم مطر السماء، وتُمهَّد قلوبهم كما تُمهَّد الأرض بالفلاحة والسماد، وكل هذه المفاهيم متضمَّنة في كلمة (مُدَّت).

كما أشير بقوله تعالى ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ إلى أن الأرض ستلقي أنواع العلوم الروحانية والمادية، ولن يبقى هناك خفاء، ستجتمع هذه العلوم في ذلك العصر اجتماعا لم يسبق له مثيل في أي زمن. ستُخرج الأرض كنوزها، وستكشف السماء علومها، ويحدث تطور هائل في العلوم السماوية والأرضية.

أما نظرًا إلى المعنى الظاهري فستعني هذه الآية أنه ستقع في الأرض تطورات عظيمة تجعل الأرض تلقي ما في بطنها. وبالفعل ترى أنه قد خرجت من بطن الأرض أنواع الأشياء والمعادن من نفط وكيروسين وفازلين وجلسرين وراديوم وغيرها مما يستعمله الإنسان اليوم. فكأن الله يخبر هنا أن السماء في ذلك الزمن ستلقي ما فيها، كما تلقي الأرض ما فيها. وقد ورد هذا الموضوع في مكان آخر في قوله تعالى ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۞ وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾(الزلزلة: ٢-٣)

ومن معاني قوله تعالى ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ أن الأرض ستدفع فديةَ ذنوبها.. أي أنها ستلقي كل ما يخفى فيها من نجاسة وكدورة خفيّة، وتتخلى عنها، وستنصلح وتتقدم في الصالحات وتتبرأ من السيئات، نتيجة تأييد السماء ونصرها.

وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٦﴾

التفسير: ليس الحديث هنا عن أرض الكفر، بل عن أرض الإيمان، حيث أخبر الله تعالى أنها ستُصغي إلى ربها يومئذ. والإذن يعني الإصغاء، والإصغاء أقوى من السماع، لأن مَن أراد ألا يفوته شيء أصغى إليه، ولذلك يقول الله تعالى إن الأرض

ستأذن، أي ستصغي إلى ربها، لأنها أهلٌ لذلك.. أي أننا سنـــزوّدها بهذه الصلاحية، فتكون مؤهلة لطاعة الله طاعة كاملة.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ﴿٦﴾

شرح الكلمات:

كادح: كدَح في العمل يكدَح كَدْحًا: سعى وعمِل لنفسه خيرًا أو شرًا وكَدَّ. وقيل: الكَدَحُ جُهْدُ النفسِ في العمل والكدُّ فيه حتى يؤثِّر فيها. (الأقرب). فالكادح مَن يجتهد حتى تتدهور صحته وتُنخَر عظامه ويتأثر جسده إلى أعماقه.

التفسير: أي أيها الإنسان، عندما تجتهد حق الاجتهاد وتبذل كل ما في وسعك لوصال مع الله تعالى، فعندها ستلاقيه حتمًا. والمراد من الإنسان هنا كل إنسان، أو إمام الوقت فقط. فلو أُريدَ به كل إنسان، فالمعنى أيها الإنسان إن سبيل وصال ربك مفتوح أمامك، بشرط أن تكدح لذلك كدحًا. أما المعنى الثاني فهو: أيها الإنسان الكامل، لا مناص لك لوصال ربك من تضحيات جسيمة، وعندها ستجده. فإذا حظي الإنسان الكامل بوصال الله، يؤمر الجميع باتباع سبيله، ونيل قرب الله تعالى.

لقد بين الله هنا أن وصاله تعالى ليس أمرًا سهلا، بل على الإنسان أن يجاهد في سبيل ذلك مجاهدةً تؤثّر في عظامه وتنخرها. هذا أمر لا يعرفه الناس، فيظلّون محرومين من لقاء الله تعالى. إنهم يظنون أنهم قد آمنوا، وأنهم يصبحون كاملين في الروحانية لو جلسوا مع الآخرين قليلا وتحدثوا معهم حديث الإيمان وصلّوا وصاموا. مع أن روحانية المرء لا تكتمل إلا نتيجة الالتياع الذي يتولد من العشق الذي ينخر عظامه، ولا يتيسر له لقاء الله تعالى ما لم تكن في قلبه هذه الرغبة العارمة وهذا الالتياع وهذا العشق. أما إذا ظن أنه قد تحمل مشقة كبيرة بأداء الصلوات والصيام فهذا ليس من الكدح في شيء. فهناك أناس هم أشدّ مشقّةً منهم، مثل كنّاسي المراحيض وغسّالي الثياب وسُقاة الناس، إذ يكابدون مشقة

كبيرة، ومع ذلك لا تنخر هذه الأعمال عظامَهم، وإنما تؤثر في أجسامهم فقط، وهذا التأثير أيضا يزول بعد فترة. بينما قد استخدم الله تعالى هنا لفظ الكادح، والكدح هو اجتهاد الإنسان في عمله وكأنه أفسد صحته ونخر عظامه ودمّر جسده. فعندما يعمل المرء بهذا الشكل يُعَدّ مفلحًا، أما دون ذلك فالأمل في الفلاح خطأٌ وعبث. لقد أنشأتُ مجلس "خدام الأحمدية" ومجلس "أنصار الله" في الجماعة لهذا الغرض نفسه.. كي يجتهدوا وتعتاد جماعتنا على تحمُّل المشاقّ وأن يظل كل فرد منها مشغولا بعمل ما، إذ من المحال أن يلقى الإنسان ربه ما لم يحافظ على وقته من الضياع. فبقوله ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيه﴾ قد بين الله تعالى أنه لا يمكن لأُمّة أن ترى الله تعالى ما لم يُفْنِ كل فرد منها نفسه بالعمل.. لا شك أن لقاء الله تعالى على الصعيد الفردي ممكن بعد الكدح، ولكن نعمة لقاء الله على صعيد الأمة محال إلا إذا تفانى كل فرد منها في العمل.

إن لقاء الله تعالى يتيسر في الدنيا على صعيدين: فردي وقومي. فمن الممكن أن يحظى بعض أفراد الأمة بقرب الله تعالى، وإن كانت أمتهم كلها قد هلكت، كما كان الحال قبيل بعثة المسيح الموعود عليه السلام، حيث كان المسلمون قد هلكوا على صعيد الأمة، ومع ذلك قد وُجد فيهم صلحاء مثل حضرة عبد الله الغزنوي – الذي كتب عنه المسيح الموعود عليه السلام أنه كان من أولياء الله تعالى (حقيقة الوحي، الخزائن الروحانية، المجلد ٢٢ ص ٢٥٠) – وحضرة المجدد أحمد البريلوي، وحضرة سيد محمد إسماعيل الشهيد وغيرهم من صلحاء الأمة، ولكن كان هؤلاء نفوسًا معدودة حظيت بلقاء الله تعالى بين أربعمئة مليون مسلم في ذلك الوقت. لقد شرّفهم الله بلقائه ليُرِيَ العالَمَ أن الإسلام لا يزال يتمتع بقوة روحانية وأنه قادر على إحياء الناس وإيصالهم إلى بلاط الله تعالى، ولكن وجود هذه القلة من أهل الله تعالى لم ينفع الأمةَ نفعًا ذا بال. من كان أحمد البريلوي؟ ومن كان المولوي سيد محمد إسماعيل الشهيد؟ كان كل واحد منهم في الحقيقة بمنزلة حجة أقامها الله على الكسالى والغافلين. لقد أتى إلى الدنيا ليكون دليلا على أن الإسلام لا يزال يتمتع بتأثيرات إحيائية. ولكن لم ينفع وجوده أمة الإسلام نفعا ذا بال، لأن الإسلام اسم

لأربعمئة مليون مسلم منتشرين في الصين واليابان وسومطرة وجاوة وغيرها من بلدان العالم، ولكن لم يصل صوت هؤلاء الأولياء إلى أهل هذه البلدان. لا شك أن جماعتنا صغيرة حتى الآن، ولكنها -بفضل الله تعالى- تنتشر في شتى أقطار العالم.

إذن، فكان هؤلاء الصلحاء مجرد حجة على الغافلين ودليل على الكسالى أن الله تعالى قادر على إحياء الأمة حتى اليوم، وإن كان الواقع أن المسلمين لم يروْا وجه الله على صعيد الأمة في زمن هؤلاء الصلحاء.

فقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ﴾ يعني: يا جماعة المؤمنين، لا بد لكل فرد منكم من التفاني في هذا السبيل، وعندها تروْن وجه الله على صعيد الأمة، وتتيسر لكم نعمة لقائه.

والحق أن هذه هي النعمة الحقيقية، وإلا فإن الناس في كل زمن يحظون بلقاء الله على الصعيد الفردي، ولكن هذا اللقاء لا ينفع الأمة ككل، وإنما يظهر جلال الله على صعيد الأمة، ويرى كل فرد وجه الله تعالى بعينه حين يتفانى كل واحد منها في سبل قرب الله تعالى، ولا يضعف إلى أن ينال هذه النعمة العظيمة.

وضمير الغائب (هـ) في قوله تعالى ﴿فَمُلاقِيهِ﴾ يمكن أن يعود إلى الجزاء، ولكن إرجاعه إلى الله تعالى أنسب وأولى، نظرًا إلى المعنى الذي بينتُه.

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٨﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٩﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٠﴾

التفسير: اليد اليمنى هي التي تُستخدم للعمل عادةً، ولما كانت الآية السابقة تحثّ الإنسان على الكدح، فكأن الله تعالى قد أخبر الآن أن الرقي كله في العمل المتواصل باليد اليمنى؛ فإذا ظللتم تعملون بيدكم اليمنى فسوف تنتصرون حتمًا.

الحق أن هذه الآيات تُلخِّص مشروع "تحريك جديد"* كله.. أي الكدُّ والاجتهاد والاعتياد على العمل باليد وتكبُّد المشاقّ يضمن للإنسان النجاح في حياته. الحق أن قوله تعالى ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾.. يعني أن الإنسان لن يصاب بالقلق والضيق عند حلول الشدائد، لأن اعتياده على تحمُّل المشاقّ سيسهّلها له. أما الشخص العاطل الكسول المعتاد على حياة البذخ فيصاب بالذعر عند حلول مصيبة بسيطة، ولكن المجتهد المعتاد على تكبُّد المشاقّ يستسهل جبال المصاعب. لا شك أن هذه الآية تعني أن الله تعالى سيسهل معاملة المؤمن عند الحساب، ولكنها تعني أيضا أنه مهما كانت المحنة شديدة إلا أنه يستسهلها. فمن ذا الذي كان أشدَّ محنةً من الذين تركوا أوطانهم وعزتهم وأموالهم وأولادهم من أجل النبي ﷺ، ومع ذلك سهُلت عليهم كل هذه المصائب فصبروا عليها برضًا وطواعية؟ كان الشاعر "غالب" يتعاطى الخمر، ومع ذلك قد جرتْ على لسانه كثير من الحِكم، مما يدل على أنه كان في قلبه خير حتمًا. فيقول في شطر بيت

مشکلیں اتنی پڑیں مجھ پر کہ آساں ہو گئیں

(ديوان غالب ص ١١٠)

أي لقد صُبَّت عليّ المصائب بكثرة حتى هانتْ عليّ.

فالذي يعتاد على تحمُّل الشدائد والمشاقّ يرى حسابه يسيرا، ولكن حين يأتي وقت حساب مَن اعتاد الرفاهية والبذخ يجده عسيرا.

كان المسيح الموعود عليه السلام يقول إن الابتلاء نوعان: أحدهما ما يكون بيد الإنسان أن يخفّفه، والثاني ما يكون بخيار الله تعالى والذي يشقّ على الإنسان جدًّا.

---

* في عام ١٩٣٤م أعلن أعداء الأحمدية في الهند كلها أنهم سيدمرون قاديان ويدكّونها دكّا حتى يُقضى على هذه الجماعة التي كانت لا تزال في مهدها. فقدّم الخليفة الثاني للمسيح الموعود عليه السلام أمام أبناء الجماعة مشروعا للتقتير على أنفسهم لتوفير الأموال لنشر الإسلام الصحيح ليس في أرجاء الهند فحسب بل في العالم أجمع وسماه "تحريك جديد".. أي المشروع الجديد. وإن شبكة مساجد الأحمدية ومراكزها وازدهارها في معظم بلدان العالم خير دليل على عظمة هذا المشروع وكونه مباركا من الله تعالى. (المترجم)

وكان عليه السلام يضرب مثال الوضوء للنوع الأول من الابتلاء، فقال إن الوضوء ضروري للصلاة، ولكن لو كان الطقس باردًا، فبخيار الإنسان أن يسخن الماء إذا شاء، ومثال النوع الثاني من الابتلاء الذي يكون الخيار فيه بيد الله فقط، وليس بيد الإنسان أن يخفف وطأتَه: موتُ قريبٍ له، فإن الإنسان لا يحتمله إلا إذا كان معتادا على حياة المشقة والمرارة، تاركًا عيشة الراحة والبذخ، ولو اعتاد المشقة سهُل عليه كل الصعاب. (ملفوظات، المجلد ٣ ص ٦٣٨)

أما قوله تعالى ﴿وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ فيبين بوضوح أن الحديث هنا عن الحساب الذي يتم في هذه الدنيا، إذ لن يعرف أحد مصير أهله عند الحساب في الآخرة. ثم ليس ضروريًا أن يكون أهله كلهم من أهل الجنة، إذ يمكن أن يكون بعضهم في النار، بينما يقول الله تعالى هنا إنه يرجع إلى أهله مسرورا بعد الحساب فورًا. مما لا شك فيه أن الله تعالى سيجعل أهل المؤمن وعياله معه في الجنة، ولكن هذا سيتمّ بعد الحساب، وليس أنه يكون في حساب بينما يكون أهلُه موجودين في الجنة قبله. كلا، بل الموقف أشدُّ من ذلك، حتى قال النبي ﷺ: لو أردتم أن تبحثوا عني يومئذ فعليكم بكذا وكذا من العلامات؛ وما دمنا بحاجة إلى علامات للعثور على مكان النبي ﷺ يوم الحساب، فكيف يجد المؤمن العادي أهله فور حسابه؟ فثبت بذلك أن قوله تعالى ﴿وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ يتحدث عن هذه الدنيا.. أي أن الكادح في سبيل الدين سيظل في جِدّه وكدّه، وعندما يقطف ثمار اجتهاده الطيبة في الدنيا يرجع إلى أهله مسرورا.

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١١﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١٢﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٣﴾

شرح الكلمات:

ثبورا: الثبور: الهلاك والفساد. (المفردات)

التفسير: قوله تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ يعني أن الذي يؤخّر عمل اليوم إلى الغد دائمًا، ويلقي أعماله وراء ظهره باستمرار، فإنه سيُؤتى كتابه وراء ظهره، أما مَن ظلّت يده اليمنى مشغولة بالعمل، فسيُؤتى كتابه في يده اليمنى.

ثم يقول الله تعالى ﴿فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا﴾. الظاهر أن الذي يتلقى كتابه من وراء ظهره لن يجد فيه ما يسرّه، لأن الخبر السارّ يُكشَف والخبر المحزن يُخفى، وحيث إن ما في كتابه سيحزنه لذلك سيعطى كتابه من وراء ظهره، وعندما يراه يدعو ثبورا.. أي ثبورا لنفسه، أي يتمنى هلاكه.

أو المعنى أن بطش الله يكون شديدا حتى يقول الإنسان ليتني كنت ترابا، لكي لا أرى هذا المصير.

ويمكن أن يفسَّر قوله تعالى ﴿فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا﴾ أن هلاك هذا الإنسان لا يكون من الله ظلمًا، بل إنه بنفسه يرد مورد الهلاك بسيئاته.. بتعبير آخر إن الله تعالى لا يريد أن يعذب العبد، بل إن العبد نفسه يدعو العذاب بعمله.

وقوله تعالى ﴿وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾ يعني أنه سيدخل في نار مضطرمة، ومفهومه – من منظور هذه الدنيا – أنه سيحترق في نار الهموم والغموم.. أما نظرًا إلى الآخرة فمعناه ظاهر بيّن.

إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٤﴾

التفسير: ورد في الآيات السابقة أن المؤمن لم يكن يجد فرصة الجلوس في بيته براحة وهدوء لكثرة اجتهاده وكدحه، ولذلك عندما ينال جزاءه، فسوف ينقلب إلى أهله مسرورا، إذ رجع إليهم ناجحًا فائزا، أما الكافر فكان يجلس في بيته عاطلا منغمسا في الملذات، ولم يكن يجتهد لإرضاء ربه، ولذلك عندما تظهر نتائج أعماله فيكون في حزن وغمّ شديد. لقد تبين من ذلك أن المؤمن يبدأ عمله بغمّ، وتكون عاقبته سرورا، والكافر يبدأ عمله فرحًا وتكون عاقبته غمًّا.

إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٥﴾

شرح الكلمات:

يحور: حارَ يحور حَوْرًا وحُؤورًا: رجَع. وحارت العُصّةُ حَورًا: انحدرتْ كأنها رجعتْ من موضعها. وحارَ فلان حَورا: تحيَّر. وحارَ بعدما كارَ: نقص بعد ما زاد. ومنه: "نعوذ بالله من الحَوْر بعد الكَوْر" أي من النقصان بعد الزيادة. (الأقرب).

فقوله تعالى ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ يعني أنه ظن أنه لن يرجع إلينا، أو لن يئول من السراء إلى الضراء، أو لن يتعرض للمشاكل بحيث يحتار من أمره، أو أنه لن يصاب بالخسارة.

التفسير: إن أكبر سبب لهلاك الناس في الدنيا أنهم إذا حقّقوا نجاحًا ورفعة ظنوا أن لا زوال لهم بعد ذلك، فلا يُعدّون عُدّتهم لتجنب هذا الزوال. الشعوب تزدهر، ولكنها لا تسعى بعد ذلك لسدّ طرق الزوال، وعندما يأتي الزوال لا يبقى عندهم فرصة للعودة. ومَثَلُ القانون الإلهي كالقطار الذي إذا سار في اتجاه ظلّ سائرًا لبعض الوقت حتى بعد انتهاء وقوده. وهذا ما يخدع الأمم دائما. فلو أن قطار التقدم القومي توقف فورا عند انتهاء الوقود لتوجهوا إلى تدارك أمرهم، ولكن يظل يسير لبعض الوقت رغم انتهاء وقوده.. والنتيجة أن القوم يشعرون بدمارهم بعد فوات الأوان.

بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٦﴾

التفسير: أي أن تفكير هذا الإنسان ليس صحيحًا، بل الحقيقة خلاف ذلك، فإن ربه يراه جيدا، بمعنى أن كل أعمال الأمة تكون تحت رقابة الله تعالى، فهو لا ينساها وإن نسيها الإنسان أو الأمة، فلذلك مهما ظلت أعمال القوم في الخفاء في الظاهر، إلا أن نتائجها تكون حسب الواقع لا خلافه، وإن أسباب زوال هؤلاء القوم أيضا ستتهيأ. والمراد من هؤلاء القوم معارضو الحق في الزمان الأخير، حيث أخبر الله تعالى هنا أن الكفر سيكون قويًّا في الظاهر عند هذه الثورة السماوية

والأرضية، ويظن الرائي أن الكفر لن يُغلب، ولكن الواقع أن الكفر سيكون منخورا من داخله نتيجة تغيرات كثيرة بحيث لن يقدر على مقاومة النظام السماوي.

فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٧﴾

شرح الكلمات:

هناك اختلاف بين النحويين حول (لا) الواردة في قوله تعالى ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾، فيقول أبو عبيدة وجماعة من المفسرين إنها زائدة، والتقدير: "أُقسِمُ".. أي أُقدِّمُ الشفقَ شهادةً على ما أقول. ويقولون: "زيادتها جارية في كلام العرب"، ومثاله قولُه تعالى ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾(الأعراف:١٣)، حيث المراد: ما منعك أن تسجد، وقولُه تعالى ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾(الحديد:٣٠)، حيث المراد: ليعلم أهل الكتاب.

ثم يقول بعض العلماء: "إنما تُزاد في وسط الكلام لا في أوله".

غير أن بعض المفسرين قال: إن هذه القاعدة تنطبق على كلام الناس لا على القرآن الكريم، لأنه كله في حُكْمِ سورة واحدة، متصل بعضه ببعض، فحيثما جاءت فيه (لا) كهذه اعتُبرت في وسط الكلام.

وقد اعترض عليه البعض فقال: لا شك أن مضمون القرآن الكريم كله في حكم سورة واحدة، ولكن آياته تُعتبر منفصلةً بعضها عن بعض من حيث عبارته الظاهرة، فلا يمكن أن نعتبر سورةً جزءًا من أخرى.

وهذا الاعتراض -لو سلمنا بصحته- يَرِدُ على (لا) الواردة في بداية السور، لا على التي تأتي وسط الكلام. (الكشاف، فتح البيان)

وليكن معلوما هنا أن هذا الكلام كله ناتج عن وسوسة، وهي أنهم قد اعتبروا (لا) هذه نافية. لا شك أننا بحاجة إلى تقدير شيء قبل (لا) لتنفيه، ولكن لو اعتبرنا (لا) هنا زائدة، فلا يبقى هناك أي اعتراض.

وجاء في الكشاف: إدخال «لا» النافية على فعل القَسم مستفيض في كلامهم وأشعارهم، وفائدتها توكيد القَسم.

وقال بعضهم: هي ردٌّ لكلامهم حيث أنكروا البعث كأنه قال: ليس الأمر كما ذكرتم، أُقسِمُ بيوم القيامة. (فتح القدير)

وقال الفراء وكثير من النحويين إنها ليست زائدة، بل هي نافية، ومثاله عندهم: قول العرب في حديثهم: لا والله؛ إذ لا يعني القائل أنه لا يقسم بالله، بل يعني أنه يرفض ما قيل له وأنه يُقسِم على صحة موقفه. (فتح القدير)

وقال البعض الآخر: وقيل: هي للنفي، لكن لا لنفي القسم، بل لنفي ما ينبئ عنه من إعظام المقسَم به وتفخيمه، كأن معنى "لا أُقسِم بكذا": أي لا أُعظِمه بإقسامي به حقَّ إعظامه، فإنه حقيق بأكثر من ذلك. (فتح القدير)

الظاهر أن هذا المعنى لغو وباطل أيا كان قائله، لأننا نتحدث هنا عن القَسم الذي يقسم به الله تعالى، فقولهم إن الجملة تعني هنا أن الله تعالى يقول أنني أقسم ولكنني لا أستطيع أداء حق هذا القسم، لقولٌ باطل بداهة؛ إذ كيف يقال عن الله الذي يقال عنه ﴿الحمد لله﴾ أنه لا يؤدي حقّ القسم؟

وقيل: إنها لنفي القَسم لوضوح الأمر، أي لا أُقسِمُ بهذا الشيء، لأنه واضح ظاهر، ولا حاجة للقَسم به.

ولكن هذا المعنى أيضا باطل بداهة، لأن الأمر المطلوب بيانه هو المقسَم عليه، أما الشيء الذي يتم القَسم به فهو يُقدَّم كشاهد على المقسَم عليه؛ فالقول إن قوله تعالى هذا يعني: إني لا أقسم بهذا الشيء لأن شهادتَه واضحة، لهو قول لا معنى له.

فالحقيقة أن (لا) هذه زائدة تفيد التوكيد. وليس المراد من قولنا إنها زائدة أن لا فائدة لها، إذ لا يوجد في القرآن حرف زائد لا فائدة له، وهي مألوفة في أسلوب كلام العرب، ولا حاجة لأي تكلف في تأويلها. نعم، عندما تكون (لا) نافية فلا بد أن يُذكَر قبلها شيء، سواء في السورة التي وردت (لا) فيها أو السور التي سبقتْها والتي هي كلها حلقات من موضوع واحد متسلسل.

الشفق: الشفق: الحُمرة في الأفق من الغروب إلى العشاء الآخرة أو إلى قريبها أو إلى قريبِ العَتَمة، فإذا ذهَبَ قيل: غابَ الشفقُ (علمًا أن العرب يطلقون العشاء على صلاة المغرب أيضا، ولذلك إذا أرادوا الصلاة التي بعدها قالوا: الصلاة الآخِرة

ويطلقون عليها العَتَمة أيضا). قال الأصمعي: سمعتُ بعض العرب يقول: عليه ثوبٌ كأنه الشفق، وكان أحمر. (وقال الجوهري) في "الصحاح": الشفق بقيةُ ضوء الشمس وحُمرتها في أول الليل إلى قريب من العَتمة. (الأقرب)

ورد في بعض التفاسير اللغوية عن عليّ وابن عباس وعبادة بن الصامت وأبي هريرة وشداد بن أوس وابن عمر ومحمد بن علي بن الحسين ومكحول وبكر بن عبد الله المُزني وبُكير بن الأشج ومالك وابن أبي ذئبة وعبد العزيز بْن أبي سَلَمَةَ الماجِشون أنهم قالوا: الشفق هو الحمرة. وقال مجاهد: الشفق هو الحمرة قبل طلوع الشمس، وقال أهل اللغة: هو الحمرة بعد غروبها. (ابن كثير)

وعن عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال: وقتُ صلاة المغرب ما لم يَغَبِ الشفقُ. (مسلم: كتاب المساجد، باب أوقات الصلوات الخمس) ويقول ابن كثير بعد ذكر هذا الحديث: "فيه دليل أن ما قال أصحاب اللغة صحيح، والشفق حمرة بعد غروب الشمس." (ابن كثير)

ودليلُ مجاهدٍ أن الليل مذكور بعدها في الآية التالية، لذلك فالمراد من الشفق: النهارُ قبل طلوعِ الشمس، إذ قال الله تعالى هنا ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ۝ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾، فالمقارنة هنا بالليل، فثبت أن الشفق إشارة إلى النهار.

ولكنه دليل عقلي بحت، وقد أقرَّ مجاهد نفسه أن قوله لا يستند إلى دليل من اللغة. مع أن الواقع أنه لا بأس عقلاً من اعتبار الشفق بمعنى الحمرة التي تكون بُعيد غروب الشمس إزاء الليل، لأن الشفقَ هو ذلك الوقت الذي لا يزال فيه بقية من ضوء النهار. فالحقيقة أن معنى الآية كالآتي: أستشهد بذلك الوقت الذي يذهب فيه النهار، ويبقى شيء من ضوئه، وأستشهد أيضا بالليل حين ينتشر ظلامه. وفي هذه الحالة تظلّ المقارنة بين الليل والنهار كما هي، دون أن نلجأ إلى تفسير الشفق بالنهار خلافا للغة.

التفسير: انظرْ تفسير هذه الآية عند تفسير قوله تعالى﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾.

وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٨﴾

شرح الكلمات:

وَسَقَ: وَسَقه يسقه وَسَقًا: جمَعه وحمَله. ووسَق البعيرَ: حمَّله الوَسْقَ. وَوَسَقَ البعيرَ وسيقًا: ساقَه. والوَسقُ عادةً ستون صاعًا، وقيل الوسق عند أهل الحجاز ٣٢٠ رطلا، وعند أهل العراق ٤٨٠ رطلا. وقيل هو: حِملُ بعير (الأقرب).

وقال المفسرون: قال ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة: ﴿وما وَسَق﴾: أي وما جمَع. وقال قتادة: وما جمَع مِن نجمٍ ودابةٍ. وقال عكرمة: ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾: يقول ما ساقَ مِن ظُلْمَة. (ابن كثير)

التفسير: سيأتي تفسيره عند الآية التالية.

وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٩﴾

شرح الكلمات:

اتَّسَقَ: افتعال مِن وَسَقَ. اتّسقَ أمرُه: انتظمَ واستوى. (الأقرب)

وورد في المفردات: "الاتساق: الاجتماعُ والاطّرادُ".

واطّردَ الأمرُ: تَبِعَ بعضُه بعضًا واستقام. (المنجد)

ويقول الفرّاء في تفسير قوله تعالى ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾: اتساقُه امتلاؤُه واجتماعه واستواؤه ليلة ثلاث عشرة وأربع عشرة إلى ست عشرة، وهو افتعال من الوسق الذي هو الجمع. (القرطبي، وزاد المسير)

ويقول الحسن البصري: اتّسَق أي امتلأ واجتمعَ. وقال قتادة: استدارَ.

ويقال: أمرُ فلانٍ متّسقٌ: أي مجتمِع. (ابن كثير، والطبري)

وورد في ابن كثير: قال ابن عباس: ﴿إذا اتّسق﴾.. إذا اجتمع واستوى. وكذا قال عكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير ومسروق وأبو صالح والضحّاك وابن زيد: إذا اتَّسَقَ إذا استوى. وقال الحسن: إذا اجتمع وإذا امتلأ. وروي عن الحسن البصري

أيضا: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ أي امتلأ واكتمل ضوؤه. وقال قتادة: استدار. ومعنى كلامه: أنه إذا تكاملَ نورُه وأبدرَ. (ابن كثير)

ويقول الآلوسي في تفسيره: اتَّسق: اجتمعَ نوره وصار بدرًا (روح المعاني). وقال صاحب الكشاف: اتسق: اجتمعَ واستوى ليلةَ أربعة عشر. وقال ابن عباس: اتسق: استوى. وعنه: قال ليلة ثلاثة عشر. (فتح القدير)

التفسير: لقد تحدثت هذه الآيات الثلاث عن مراحل ثلاث تأتي على الإسلام: فأوّلُ ما قال الله تعالى هنا هو أننا نقدّم أمامكم حالة الشفق كشهادة على صدق ما نقول. والشفق كما بيّنتُ سابقًا هو ذلك الوقت الذي يلي مغيب الشمس، والذي يكون فيه في الأفق ضوء وحُمرة، وأما الوَسَق فمعناه الجمع، وعليه فقوله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ يعني: نقدّم أمامكم كشهادةٍ الليلَ حين يستجمع في نفسه كل الصفات والكيفيات التي تجعله ليلا كاملا.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾.. أي نقدِّم أمامكم كشهادةِ القمرَ حين استوائه الليلةَ الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة؛ فكما أن الليل يجمع في نفسه كلَّ ما يجمعه من ظلام وهدوء وغيرهما، كذلك سيَجمع القمر عندئذ في نفسه كلّ طاقاته. والمعروف أن القمر يجمع كل طاقاته ويكون في أَوْجِه وهو في الليلة الرابعة عشرة من الشهر.

لقد قال بعض المفسرين: هذه الآيات إشارةٌ إلى مراحل اكتمال القمر تدريجيا، حيث بيّن الله تعالى بذلك أن الأمم أيضًا تزدهر هكذا بالتدريج.

وقد قال البعض إن هذه الآيات تتحدث عن ازدهار الإسلام في زمن النبي ﷺ.

ولكن هذه الفكرة مرفوضةٌ بداهةً، لأن النبي ﷺ قد جاء عند اشتداد ظلمة الليل، فأي شفق كان عندئذ؟ ثم إن الله تعالى قد سمّى النبي ﷺ شمسًا، بينما تتحدث هذه الآية عن القمر، والمعروف أن القمر يستمد نوره من جرم آخر. ومتى كان النبي ﷺ قمرا حتى يصبح بدرا فيما بعد؟ كلا، بل كان ﷺ شمسا. فالحق أن هذا المعنى راجع إلى قلة التدبر.

الواقع أن الله تعالى قد أخبر من قبل في سور التكوير والمطففين وغيرهما أنه سيأتي زمان يحيط فيه الكفرُ بالعالم كله، أما هذه السورة فأنبأ فيها – كما بينتُ من قبل – عن ازدهار الإسلام لا ازدهار الكفر. لا شك أن هذه السورة تتحدث عن الكفر أيضا، ولكن كان الكفر هو الموضوع الأساس في السور السابقة، وكانت تتحدث عن ازدهار الإسلام ضمنيًا. أما هذه السورة فموضوعها الأساس الإسلام وتتحدث عن الكفر ضمنيًا كما سبق أن استدللنا من قوله تعالى ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾. فلما تحدَّث الله هنا عن ازدهار الإسلام ثانيةً نشأ سؤال تلقائي: متى يؤول الإسلام إلى الانحطاط؟ ولذلك أخبر الله تعالى هنا عن كل تلك التغيرات التي كانت ستحدث في المسلمين بعد الرسول ﷺ. معروف أن الله تعالى قد سمى النبي ﷺ ﴿سِرَاجًا منيرًا﴾ (الأحزاب:٤٧)، ووجودُ حالة من الشفق عند غروب الشمس أمر طبيعي، وإلى ذلك قد أشار الله هنا بقوله ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾.. أي أقدِّم أمامَكم كشهادةٍ ذلك الزمنَ الذي يختفي فيه نورُ النبي الكريم ﷺ عن الأنظار. والحكمة في ورود كلمة الشفق هنا هي أن الشمس تكون موجودة في الحقيقة وقتَ الشفق، ووقتَ الليل ووقتَ طلوع القمر أيضًا، ولكنها تكون خافية عن أنظار الناس. فعندما أشار الله تعالى في الآيات السابقة إلى انحطاط الإسلام كان يمكن أن ينشأ في ذهن البعض تساؤُل: لعلّ نبوّة محمد رسول الله ﷺ لن تعود صالحةً في ذلك الوقت؟ فرَدَّ الله على هذا التساؤل وبيّن أن نبوّته ﷺ لن تصبح غيرَ صالحة عندها، بل سيكون ذلك الزمن زمنَ الشفق والليل، ومعلوم أن الشمس لا تنمحي وقتَ الشفق والليل، بل تكون موجودة، إلا أن الناس لا ينتفعون منها. فالحق أن الله تعالى قد بيّن بهذه الكلمات أن الإسلام لن يؤول إلى الانحطاط بسبب ضعف القوة القدسية المحمدية، وإنما بسبب انحطاط المسلمين. ذلك أن انحطاط الأمة له سببان: فسادُ زعيمها، أو إعراضُها عن زعيمها الذي لم يفسد. فكأن الله تعالى يقول هنا: قد أخبرناكم عن انحطاط الإسلام، ولكن هذا لن يكون نتيجة فساد في محمد رسول الله ﷺ، وإنما سببه فساد المسلمين الذين يبتعدون عنه، فيُحرمون من اكتساب نور الهداية منه، فمثل انحطاط أمته كمثل الشفق والليل اللذين ليسا نتيجة

انمحاء الشمس، بل نتيجة اختفاء الأرض عن الشمس.

وقد أشير هنا إشارة لطيفة إلى أمر آخر، وهو دوران الأرض حول الشمس، إذ لو اعتُبِرَت الشمس هي الدائرة حول الأرض لم يستقم هذا المثال، إذ يكون المعنى في هذه الحالة أن محمدًا رسول الله هو الذي هرب معرضًا عن أمته، مع أن الله تعالى يخبر أنه ﷺ لم يهرب، وإنما المسلمون هم الذين هربوا وأعرضوا عنه. فالحق أن هذا المثال إنما يستقيم اذا اعتبرنا أن الأرض هي التي تدور حول نفسها وحول الشمس.

وقد بدأتْ فترة الشفق هذه في زمن أشار إليه الرسول ﷺ في الحديث التالي: "خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثم يكون بعدهم قَوْمٌ يَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَنْذِرُونَ وَلَا يَفُونَ، وَيَظْهَرُ فيهمْ السِّمَنُ." (البخاري: فضائل أصحاب النبي ﷺ).. أَي أن ثلاثة قرون بعدي ستكون قرون خير، ثم تنتشر المفاسد. وهذه القرون الثلاثة الأولى المباركة هي قرون شمس النبي ﷺ، وبعدها حُجبت الشمس المحمدية، وبدأ زمن الشفق، ذلك الزمنُ الذي كان النور والظلام لا يزالان مختلطيْن فيه، ثم بدأت فترة الليل الذي جمَع فيه الظلمات بكل أنواعها.

وهناك أمر آخر جدير بالذكر، وهو أن فترة الشفق تكون جدَّ قصيرة عادةً، بل تُعتبر جزءًا من الليل نفسه، بينما يكون الليل طويلاً؛ فلماذا ذكر الله الشفق منفصلاً يا ترى؟ الجواب أن فترة الشفق في الإسلام ذات خصوصية، وهي أن الله تعالى قد قدّر لأمة رسول الله ﷺ أن يكون زمن شفقهم طويلاً وزمنُ ليلهم قصيرا، وهكذا فقد كانت فترة الشفق في الإسلام ذات سمة مستقلّة منفصلة. وهذا ما حصل بالفعل بعد عهد النبي ﷺ، حيث كان بين المسلمين في كل عصر قومٌ عملوا عَمَلَ الشفقِ، ولم يدَعوا نورَ الرسول ﷺ يختفي عن الدنيا. الحقيقة أن فترة الليالي المظلمة في تاريخ الإسلام لم تكن إلا في القرنين الهجريين الحادي عشر والثاني عشر، بل لو أمعنا النظر لوجدنا فيهما أيضا شيئا من الشفق.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾.. أي نُقسِم بالليل وما جمَع. لقد تبينَ من هنا بوضوح أن هذا الشفق في الإسلام سيستمر إلى الوسق، وهذه إشارة إلى أن نور النبي ﷺ لن ينطفئ، بل المسلمون أنفسهم سيُعرِضون عن نوره. كما أن فيه إشارة

إلى أن ذلك الليل يكون شديد الظلام مُرْعِبًا حيث يستجمع في نفسه كل ما يجعله كامل الظلام، حيث تقع فيه حالات السرقة وقطع الطرق والقتل، وتخرج فيه الثعابين والعقارب ويشتد الظلام بحيث لا يرى أي شيء. إذن، فقد بين الله تعالى بقوله ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ أن تلك الفتنة تكون شديدة، وسيجتمع عندها كل ما يجعل ليلَها كاملَ الظلمة مرعبًا.

فقوله تعالى ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ۞ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۞ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ واضح في مراده بحيث يبطل به -تلقائيًا- قولُ المفسرين أنه إشارة إلى أن الرقي يتم بالتدريج. فقد ذكر الله تعالى أولاً الشفق، ثم الليل الشديد الظلام، ثم القمر الذي سيصبح بدرًا بعد السير في منازله. وهذه الأمور الثلاثة لا تجتمع في العالم المادي أبدا، فلا يأتي بعد الشفق ليل شديد الظلام حتمًا، ولا يطلع البدر بعد ليلة شديدة الظلام. فهل من مفسر يخبرني أيُّ بدر يطلع بعد الحالة المشار إليها في قوله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾؟ حيث ذكر الله هنا ظلمة الليل أولاً، ثم طلوع البدر. فثبت أن هذه الآيات لا تتحدث عن قاعدة الرقي التدريجي في العالم المادي، ولا تذكر أيَّ قانون مادي، وإنما تذكر أمرًا روحانيًا حيث تنبئ عن شتى مراحل انحطاط الإسلام ورقيه. فليس الليل هنا ليلا ماديا، بل المقصود ليل روحاني، والفرق بين الليالي المادية والروحانية أن الليالي المادية لا تكون مظلمة قبل طلوع البدر، بل تكون مضيئة، حيث إن الليلتين الثانية عشرة والثالثة عشرة اللتين تسبقان طلوع البدر لا تكونان مظلمتين، بل تشتد الظلمة في الليلتين الثامنة والعشرين والتاسعة والعشرين من الشهر. بينما يحدث العكس في العالم الروحاني، حيث يطلع البدر بعد أن تكون ليلةٌ شديدة الظلام قد أحاطت بالعالم كله. إذًا فإن الله تعالى قد نبّه بإيراد قوله ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ بعد قوله ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ إلى أن الحديث هنا ليس عن العالم المادي، بل عن الشفق الروحاني والليل الروحاني والبدر الروحاني. فلا ذكرَ هنا لأي قانون عن الرقي التدريجي في العالم المادي. يقول الله تعالى ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾.. أي أننا نقدّم كشهادة القمرَ حين يصير بدرًا. وهذه نبوءة واضحة عن بعثة المسيح الموعود عليه السلام بحيث إن من الظلم العظيم القولَ أنه لا ذِكْرَ لبعثة المسيح

الموعود في القرآن الكريم. لقد ذكر الله تعالى هنا ثلاثة أدوار تأتي على الإسلام، فأخبر عن فترة الشفق التي تأتي بعد الرسول ﷺ وتكون طويلة، ثم تليها فترة قصيرة من الظلمة، ولكنها رغم قصرها تكون شديدة الظلام بحيث تجتمع فيها كل ظلمات الدنيا، وبعدها فجأةً يتحول قمرٌ من رجال استمدّوا نورهم من الرسول ﷺ إلى بدر كامل، فيحيط بهذه الليلة بحيث يبدّد ظلمتها تمامًا، لأن من شأن البدر الكامل أن يبدد الظلام كليةً. فهذا البدر الروحاني الكامل أيضًا سينشر نورَه في العالم بحيث لن يشعر الناس بما يوجد بينهم وبين الرسول ﷺ من بُعد الزمان.

إذًا فهذه الآيات ترسم لنا رسمًا واضحًا ومتكاملاً التغيرات المستقبلية التي كانت ستؤثر على الإسلام، بدءًا من زمن الرسول ﷺ إلى آخر الزمان.

لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿٢٠﴾

شرح الكلمات:

طَبَقًا عن طَبَقٍ: الطَبقُ: القرنُ من الزمان؛ الناسُ؛ الجماعةُ؛ الحالُ. (الأقرب)

وورد في المفردات: الطبَق: المطابَقة.

التفسير: يقول عزَّ من قائل: إنا نُقسم أنكم ستمرون من مرحلة إلى أخرى. ومن الملاحظ هنا أن الله تعالى قد استعمل في قوله ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ اثنين من أدوات التوكيد: اللام والنون المشددة؛ وأتساءل: ما الداعي لهذا التأكيد الشديد إذا كانت هذه الآيات لا تتضمن أيةَ نبوءة هامة عن المستقبل؟ الحق أن صياغة هذه الآية تبين أن لا علاقة لها بزمن الرسول ﷺ، إنما تنبئ عن أحداث ستقع في المستقبل؛ إذ لا مجال للشفق في عهد الرسول ﷺ، ولا لليلة شديدة الظلمة، ولا للقمر الذي سيتّسق. فثبت أن هذه الآيات تتعلق بالمستقبل قطعًا.

ويفيد حرفُ (عن) معاني كثيرة، منها البعدية، كقولك: عن قليل أزورك.. أي بعد قليل أزورك، وقد ورد حرف (عن) في قوله تعالى ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ أيضًا بمعنى البعدية، والمراد: لتركبُنَّ طبقًا بعد طبق. وقد مرَّ في شرح الكلمات أن

من معاني الطبق: الحال والجماعة، وكلاهما ينطبق هنا؛ فكأن الله تعالى يقول: أُقسِم أنكم ستمرون بهذه الحالات الأربع المذكوة آنفًا حالةً بعد حالة. أو المعنى: لتركبنّ جماعةً بعد جماعة، أي ستمرّون بحالات الجماعات المذكورة هنا جماعةً بعد جماعة.

وبالفعل نرى أن الله تعالى قد حقق كل هذه الأنباء بشكل رائع. فقد ظلّت الشمس المحمدية المنيرة تضيء العالم ثلاثة قرون، ثم جاء بعدها فترة الشفق التي امتدّت طويلا، حيث وُجد فيها صلحاء كبار كأمثال السيد عبد القادر الجيلاني، ومعين الدين الجشتي، ومحيي الدين بن عربي، الذين قد حافَظوا على نور النبي ﷺ وتعاليمه. لا شك أن الليل كان مخيمًا في تلك الفترة أيضًا، ولكن ليس بوسع أحد أن ينكر وجود الشمس عندها؛ إذ لم تزُلْ من هناك حمرة الشفق. وبعدها في القرنين الهجريين الثاني عشر والثالث عشر سادت الظلمة وكانت شديدة ومخيفة، بحيث رأى العالم مشهد ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾.. أي أن تلك الليلة المظلمة جمعت في نفسها ما يمكن أن تجمعه من بلايا وآفات ومصائب. كانت تلك الفترة فترةَ دمار للإسلام والمسلمين لا مثيل له في الأزمنة الخالية. ثم بعد تلك الليلة الليلاء تحوَّل فجأة قمرٌ إلى بدر كامل بحسب قوله تعالى﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾، وبدأ ينشر نور رسول الله ﷺ في العالم أجمع.

فكِّروا في هذه النبوءة، فسوف تجدون أنها لم تتحقق مضمونًا فحسب، بل شكلاً أيضا. لقد سبق أن بيّنّا لدى شرح الكلمات أن اتساق القمر يعني استواءه من الليلة الثالثة عشرة إلى السادسة عشرة من الشهر؛ وقد تحقق هذا الأمر جليًا، حيث وُلد المسيح الموعود عليه السلام في القرن الثالث عشر الهجري، وأعلن دعواه في القرن الرابع عشر، ثم أنبأ عليه السلام أن عهده ممتد لثلاثة قرون، أي حتى آخر القرن السادس عشر الهجري. فقد قال عليه السلام:

"إن عهد المسيح الموعود عليه السلام ممتد إلى الزمن الذي يوجد فيه الذين رأوْه أو الذين رأوا من رأوْه، أو الذين رأوا هؤلاء.. وظلوا عاملين بتعاليمه. باختصار، إن مدة القرون الثلاثة ضرورية نظرًا إلى منهاج النبوة." (ترياق القلوب، الخزائن الروحانية مجلد ١٥ ص ٤٧٨ الحاشية). وكذلك قال عليه السلام:

"لن ينقضي القرن الثالث من هذا اليوم إلا ويستولي اليأسُ والقنوط الشديدان على كل من ينتظر نزول عيسى، سواء كان مسلمًا أو مسيحيًّا، فيرفضون هذه العقيدة الباطلة؛ وسيكون في العالم دين واحد وسيد واحد. ما جئتُ إلا لزرع البَذْرة، وقد زُرعتْ هذه البَذْرة بيدي، والآن سوف تنمو وتزدهر، ولن يقدر أحد على أن يعرقل طريقها". (تذكرة الشهادتين، الخزائن الروحانية مجلد ٢٠ ص ٦٧)

وقال عليه السلام عن مصير معارضيه:

"مِن المقدَّر للذين سيظلون خارج هذه الجماعة أن يتناقصوا يوما بعد يوم، وكل الفرق الإسلامية التي لم تنضم إلى هذه الجماعة ستظل في تناقص مستمر؛ فإما أن ينضموا إلى هذه الجماعة أو ينقرضون شيئا فشيئا كما حصل مع اليهود، حيث ظلوا ينقصون شيئا فشيئا حتى أصبحوا قليلي العدد. هكذا يكون مصير معارضي هذه الجماعة. أما أبناؤها فسيصبحون غالبين على الجميع بعددهم وقوة مذهبهم. (براهين أحمدية، الجزء الخامس، الخزائن الروحانية المجلد ٢١ ص ٩٥)

إذن، فعهد المسيح الموعود عليه السلام يبدأ من القرن الثالث عشر الهجري ويصل إلى نهاية القرن السادس عشر. وهذا ما يقوله أهل المعاجم بأن اتساق القمر يعني استواءه من الليلة الثالثة عشرة إلى السادسة عشرة. لو وُضعت هنا كلمة (البدر) لما اتسع الموضوع هكذا كما اتسع بقوله تعالى ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾، إذ تشير إلى زمن المسيح الموعود عليه السلام.. أي أنه سيولد في القرن الثالث عشر، ويظهر في القرن الرابع عشر، وسيظل تأثيره يزداد باطّراد حتى آخر القرن السادس عشر الهجري.

فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢١﴾

التفسير: أي سيقال لأهل ذلك الزمن: ما لكم لا تؤمنون؟ كان يجوز لهم أن يقولوا لا نعرف متى يتّسق القمر، وكان بوسعهم أن يقولوا: نحن لم نرَ ظهور البدر الكامل، ولكنهم ما داموا قد رأوا فترتَي الشفق والليل، فكان بوسعهم أن يدركوا بذلك أنه لا بد الآن أن يأتي زمنٌ تتحقق فيه النبوءة الواردة في قوله تعالى ﴿وَالْقَمَرِ

إِذَا اتَّسَقَ﴾. ولكن اليأس قد تمكن من قلوبهم نتيجة الليل، فيظنون أن الإسلام لن يزدهر الآن أبدا. فما بالهم قد رأوا الشفق ثم الليل أيضا، ومع ذلك لم يفهموا أن طلوع البدر الكامل أيضا مقدَّر. فقوله تعالى ﴿لا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني أنهم لا يؤمنون أن البدر الكامل سوف يغطّي على هذه الليلة الليلاء ويبدد ظلماتها.

وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾

شرح الكلمات:

لا يسجُدون: سجَد يسجُد: خضَع وانْحنى. وسجَدت السفينةُ للرياح: أطاعتْها ومالتْ بميلها. (الأقرب)

التفسير: لقوله تعالى ﴿لا يَسْجُدُونَ﴾ مفهومان: أولهما أنهم لا يطيعون، وثانيهما أنهم لا يسجدون سجدة الشكر على نزول القرآن في زمنهم مرة أخرى. الحقيقة أن هذه الآية تتضمن نبوءة أنه سيأتي على الناس زمان لن يبقى فيه القرآن في الأرض، بل يرتفع إلى الثريا، فيعود به إلى الدنيا شخص يكون بمنـــزلة البدر، فيُقرأ القرآن على الأرض ثانية، ويُعمَل به مرة أخرى وتُجدَّد أحكامه من جديد. وهذه نعمة عظيمة وفضل كبير من الله تعالى، وكان المفروض أن يخرّوا له ساجدين شكرًا على أنه قد رجع إليهم كتابهم وأنّ كنـــزهم الروحاني الذي كان قد ضاع منذ مدة طويلة قد أعاده إلى بيوتهم ثانية، ولكنهم أصبحوا ناكرين للجميل باتهامهم هذا الإنسان بأنه يحرّف القرآن.

أو المعنى أن هذا الإنسان الذي يكون كالبدر سيعرض عليهم القرآن الكريم، ولكنهم سيعرضون أمامه الحديث وأقوال الأسلاف بدلاً من أن يطيعوا القرآن الكريم، ولن يقبلوا ما فيه.

هناك قصة شهيرة لأحد الإخوة من جماعتنا وهو "ميان نظام الدين"، وقد حكيتُها مرارا. فقَبْلَ بيعته جاء إلى المسيح الموعود عليه السلام وقال: لو جئتُك بمئة آية قرآنية على حياة المسيح عليه السلام، فهل تؤمن بحياته؟ فقال له المسيح الموعود عليه السلام:

دعك من مئة آية! ائتني بآية واحدة، ولسوف أؤمن بحياة المسيح. قال: سآتيك بعشر آيات على الأقل. ثم خرج من عنده عليه السلام فرِحًا مسرورا، وذهب رأسًا إلى المولوي محمد حسين البطالوي لكي يُخرج له من القرآن هذه الآيات. وكان المولوي البطالوي عندها في مدينة لاهور، وكان حضرة المولوي نور الدين رضي الله عنه الخليفة الأول للمسيح الموعود عليه السلام أيضًا قد حضر هنالك من ولاية "جامون" لقضاء إجازة، وكان الاثنان يضعان شروطًا للمناظرة بينهما بشأن وفاة المسيح عليه السلام أو حياته. وكان الخليفة الأول رضي الله عنه يقول للبطالوي: يجب فصل هذه القضية على ضوء القرآن الكريم، بينما كان البطالوي مصرًّا على أن يتمّ الفصل فيها على ضوء القرآن الكريم والحديث الشريف معًا. وبعد نقاش طويل رَضِيَ الخليفة الأول رضي الله عنه بضمّ صحيح البخاري إلى القرآن لمناقشة الأمر. وكان من عادة البطالوي الفخرُ والمباهاة، فلما رَضِيَ الخليفة الأول بهذا الشرط لم يتمالك البطالوي نفسه من شدة الفرح، فجلس في مسجد وأخذ يتباهى بأنه قد حاصر المولوي نور الدين بدليل كذا، وصرعه بقول كذا. وفيما هو في ذلك حتى وصل إليه "ميان نظام الدين" وقال: أيها الشيخ، دَعْ هذه المناظرات؛ لقد جئتُ من عند حضرة الميرزا، وقد أقنعتُه أني لو جئته بعشر آيات من القرآن الكريم على حياة المسيح عليه السلام فسوف يتوب عن عقيدته؛ فأرجوك أن تكتب لي بسرعة عشرَ آيات قرآنية فقط لكي أعرضها عليه. فسُقِطَ في أيدي البطالوي الذي كان يتباهى بإلحاق الهزيمة بالمولوي نور الدين، فقال في انفعال شديد: أي جاهل مجنون قال لك أن تتدخل في الأمر؟ فبعد محاولة شهرين متتاليين تمكنتُ من إقناع المولوي نور الدين بمناقشة الموضوع على ضوء الحديث، وأنت حوّلتَ القضية إلى القرآن مرة أخرى؟ وكان قوله هذا سيئًا بحيث لم يتحمل سماعَه "ميان نظام الدين" الذي كان يحبّ الإسلام جدًّا، فظلّ ينظر إلى وجه البطالوي في دهشة بعض الوقت، ثم قال له: إذا كان الأمر هكذا، فأنا مع القرآن الكريم. ثم خرج من عنده وجاء إلى المسيح الموعود عليه السلام وبايع على يده. (حيات أحمد (أردو) للعرفاني المجلد الثالث ص ١٤٣-١٤٥)

إذن، فمن معاني هذه الآية أن ذلك الإنسان الذي يكون كالبدر الكامل

سيعرض على الناس القرآنَ الكريم، ولكنهم سيحاولون أن يأخذوه إلى الأحاديث الضعيفة وأقوال الناس.

ومن معاني هذه الآية -كما قلت- أن القرآن سيصعد إلى السماء في ذلك العصر، فيعود به إنسان بدريٌّ إلى الأرض ثانية. ولكن القوم لن يشكروا الله على أنه قد ردّ لهم هذه النعمة العظيمة، وأنعمَ عليهم هذا الإنعام الكبير، ورحِمهم هذه الرحمة الواسعة، إذ حمى دينهم من الهلاك، وأنقذ أُمّتَهم من الدمار وهم على شفا حفرة منه.

إذا لم نأخذ بهذا المعنى فلا يبقى أيُّ رابط بين قوله تعالى ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ وقوله تعالى ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ﴾. غير أننا نستطيع أن نثبت الصلة بين الآيتين على ضوء حديث صحيح أخبر فيه النبي ﷺ أن تعليم الإسلام سيندثر في الزمن الأخير، وأن الإيمان سيصعد إلى الثريا، إذ قال ﷺ: "يوشك أن يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه، ولا يبقى من القرآن إلا رسمه". (المشكاة: كتاب العلم، وكنـــز العمال: الحديث رقم 31136).. أي سترتفع معارف القرآن وحقائقه وعلومه إلى السماء، وعندها سيُبعث من عند الله تعالى رجل فارسي الأصل، فيعود بالإيمان من الثريا، ويحيي علوم القرآن ومعارفه.

فثبت أن المعنى الذي نبيّنه ينطبق هنا كل الانطباق، ولكن المعنى الذي يذكره الآخرون لا يبيّن أي صلة بين القرآن الكريم وبين الشفق والليل والقمر.

بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٣﴾

التفسير: حرف (بل) يأتي لبيان أمرٍ إضافي، فالمراد أنهم لن يخرّوا أمام الله ساجدين شكرًا على نـــزول القرآن ثانية، ولن يطيعوه، وليس ذلك فحسب، بل سيكذبون هذا الموعود بدلاً من طاعته. سيعرض عليهم آيات القرآن، ولكنهم يقولون نحن لن نقبلها.

وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٤﴾

شرح الكلمات:

يوعون: أوعَى الشيءَ والكلامَ: حفِظه وجمَعه. وأوعَى الزادَ والمتاعَ: جعَله في الوِعاء وجمَعه فيه. (الأقرب)

التفسير: مِن معاني قوله تعالى ﴿يُوعُونَ﴾: يحفظون ويجمعون، فالمراد أن الله تعالى أعلمُ بما يجمعونه في قلوبهم، والمعنى الثاني أن الله تعالى أعلم بما تنطوي عليه قلوبهم.. أي أن القرآن سيخرج من قلوبهم ولن يبقى فيها إلا أقوال الناس التي حفظوها.

فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾

التفسير: أي أننا أردنا أن ننفعهم بهذا التدبير. لقد أردنا أن نمنحهم نصيبًا من هذا النور، لنسهّل عليهم السير في سبل التقرب إلى الله تعالى، ولكنهم ظلوا قابعين في الزوايا المظلمة، معرضين عن نور الله، ورافضين بركاته، وبدلاً من أن يخرّوا له ساجدين شكرًا على منّته، كذّبوا بآياته، فلا بد أن يقاسوا آلامًا شديدة.

إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٍ ﴿٢٦﴾

شرح الكلمات:

ممنون: الممنون: المقطوع. (الأقرب)

التفسير: إن مفهوم هذه الآية هو ما أشار إليه المسيح الموعود عليه السلام في كُتبه أنّ من المستحيل بعد بعثته أن ينال أحد قرب الله ويحظى بمقام ولايته إلا الذي يكون من جماعته ويتبعه ويقتدي به. ولو بُعِثَ في المستقبل نبي من الله تعالى فلا بد له أيضًا أن يمرّ بباب المسيح الموعود عليه السلام. لا شك أنه يحصل عند بعثة نبي جديد بعض التغير والتبدل في ظاهر الأمور، ولكن لن تنقطع علاقته عن المسيح الموعود

عليه السلام. فكما أن من المحال أن ينقطع نور محمد ﷺ إلى يوم القيامة، كذلك لن ينقطع نور جماعة المسيح الموعود عليه السلام إلى يوم القيامة. لا شك أن هذه الآيات تتحدث عن جماعة المؤمنين، ولكن الجماعة تكون تابعة للنبي، وحيث إن المسيح الموعود عليه السلام هو مسيح موعود ورسول بعثه الله إلى جميع الناس إلى يوم القيامة، فستعني هذه الآية أن كل مَن أراد أن يكون مقرَّبًا عند الله وعند رسوله ﷺ فلا بد أن يصل إليهما بواسطة المسيح الموعود عليه السلام، أما بدون ذلك فلا يمكن لإنسان الآن نيل بركات الله.